داود سلمان العبيدي

القافلة

هذه محاولة في السيرة النبوية تتحدث عن معركة بدر فقط .. وقد جمعت بين أسلوب القصة، وأسلوب المقالة . اسأل الله ان ينفع بها .



بسم الله الرحمن الرحيم

القافلة

الطبعة الأولى

١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م

مؤسسة الرسالة - بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحه
هاتف ٢٩٥٥٠١ - ص.ب ١١٧٤٦٠ - برقيا - بيوشران

اللهم ان هذه لك

[١]

خفَّ العباس بن عبد المطلب مع فتاة ابي رافع ، عندما أشار اليه من طرف خفي .. أن هلم .. فلما انفرد به ، أخبره ابو رافع ، بأن عاتكة بنت عبد المطلب ، تطلبه لأمر ذي بال !! ترك العباس مجلسه ، وراح يفكر في الأمر الذي دعته من أجله عاتكة . فلما وصل الى بيتها ، استقبلته تقول :

– يا أخي .. والله لقد رأيت الليلة رؤيا افظعتني [١] ، وتخوفت أن يدخل على قومك منها شرٌّ ومصيبة .

فاهتز العباس ، وابدى اهتماماً عظيماً ، وقال :

– وما رأيت ؟

قالت :

---

(١) افظعتني : اشتدت عليّ .

– رأيت راكباً أقبل على بعير له ، حتى وقف بالأبطح ، ثم صرخ بأعلى صوته :

ألا انفروا يالغدر [1] لمصارعكم في ثلاث فأرى الناس قد اجتمعو اليه .

ثم دخل المسجد والناس يتبعونه .

فبينما هم حوله مثل [2] به بعيره على ظهر الكعبة .

همس العباس بصوت خفيض :

– على ظهر الكعبة ؟!

ثم تابعت حديثها الرهيب ، وكأنها لا تزال ترى ذلك رأي العين :

– ثم صرخ بمثلها : الا انفروا يا لغدر لمصارعكم في ثلاث.
ثم مثل به بعيره على .. على رأس ابي قبيس [3] .

هتف العباس مقاطعاً :

– على رأس ابي قبيس ؟!

---

(١) تحريضاً لهم : اي ان تخلفتم فانتم غدر قومكم .
(٢) وقف به .
(٣) اسم جبل .

فهزت رأسها ، ثم تابعت حديثها :

– فصرخ بمثلها .

ثم اخذ صخرة فأرسلها .

فأقبلت تهوي .

حتى اذا كانت بأسفل الجبل ، ارفضت .

فما بقي بيت من بيوت مكة ، ولا دار إلا دخلتها منها فلقة .

وسكتت عاتكة .

وأخذت تنظر في عين أخيها لعله يسعفها بتفسير مقبول ، او رأي ترتاح اليه .. ولكنه قطع صمتها بقوله :

– وماذا بعد ؟

– لقد أفزعتني هذه الرؤيا .. استيقظت بعدها وأنا أشعر بأنه سيدخل على قومك منها شر ومصيبة .

فأطرق العباس طويلاً ، وأخذ بيده عوداً ينكت بـه الارض ، ثم قال وكأنه يحدث نفسه :

– والله ان هذه لرؤيا .

فأشارت عاتكة بيدها تقول :

– اكتمها يا أخي .. ولا تذكرها لأحد .
وأنتِ ... فاكتميها ... ولا تذكريها لأحد .

وخرج العباس ، وقد ملأ حديث الرؤيا آفاق نفسه ، وراح يفكر في الأحـــداث التي وقعت بمكة .. والعير التي أرسلتها قريش مع أبي سفيان الى الشام .. انها ستمر في طريق عودتها قريباً من المدينة .. موطن النبي ﷺ .

وعادت به الذكريات الى نيِّف وعشر سنوات من هـذا التاريخ ، عندما تسربت الى مجالس مكة همسات اسرّها بعض الناس الى بعضهم بحذر شديد ، واحتياط بالغ .. ولم يصدق بعضهم مـا قيل حينئذ ، وشـك البعض الآخر في الأمر .. واخذت آخرين حيرة قاتلة ، وراح يفكر فيما يقال !

ثم أخذ الهمس يتعالى ، والأصوات بدأت ترتفع .. ونزلت سيــاط الظلمة تلهب ظهور المؤمنين ، وضربت قريش سـداً منيعاً حال بين الناس وبين الوصول الى النور الذي دعا اليه محمد ﷺ .. وأصبح طريق الوصول اليه محفوفاً بالأهوال ، لا يجتازه إلا أصلب القوم عوداً ، وأقواهم عزيمة ، وأنقاهم سريرة ، وأشدهم ثباتاً .

فآمنت العناصر القوية القوية .. التي استطاعت ان تتخطى جميع السدود ، وتجتاز جميع العقبات !

ثم هاجر النبي ﷺ الى المدينة .. وهناك بـدأ الغرس

الطيب ينمو .. وينمو .. وأخذت الدعوة تشق طريقها في هدوء ، حتى وقفت على قدميها .. ووجدت لديها من القوة ما يمكنها من رد غائلة المعتدين .. عندئذ بدأ التفكير بالخطوة الاخرى .. مناجزة الأعداء .

* * *

وشعر العباس بيد توضع على كتفه برفق .. وصوت الوليد ابن عتبة بن ربيعة يقول له :

ـ ما لك يا أبا الفضل .

ونظر العباس الى وجه الوليد ، وكان لا يزال غارقاً في تأملاته التي نقلته من مكة الى المدينة .

أضاف الوليد يقول :

ـ ما الذي أهمك يا أبا الفضل ؟

فتنهد العباس وهو ينظر الى الوليد ، وكان صديقاً له .. وقال :

ـ لقد اهمني أمر سمعته من عاتكة قبل قليل .

سأله الوليد :

– وما هذا الأمر يا أبا الفضل ؟

فقرب العباس فمه من اذن الوليد ، وقال بهمس :

– انها رؤيا .. رؤيا رأتها عاتكة .

– رؤيا .. ؟!

فهز العباس رأسه وقال :

– نعم .. رؤيا رأتها عاتكة .. لقد رأت ... .

ومضى العباس يحدث الوليد بحديث الرؤيا .. واستكتمه إياها .. وذكرها الوليد لأبيه عتبة .. ومضى حديث الرؤيا ينتقل من رجل الى رجل الى امرأة الى صبي..حتى فشا الحديث بمكة .. ولم تمض عليه ليلة واحدة حتى تحدثت به قريش في أنديتها .

وضرب ابو جهل الأرض بقدمه ، وصرخ غاضباً :

– أما رضي بنو عبد المطلب ان يتنبأ رجالهم حتى تنبأ نساؤهم !! .. فسنتربص بهم هذه الثلاث ، فان يك حقاً ما تقول عاتكة فسيكون ، وان تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء ، نكتب عليهم كتاباً انهم أكذب اهل بيت في العرب .

وأخذ حديث الرؤيا مجراه ، وصار الناس بين مصدّق

ومكذّب . ولكنه على أي حال ، قد ترك أثراً عجيباً ، جعل القوم يتطلعون الى الغد بعين الحذر ، وهم لا يدرون ما الذي كتب في لوح القدر !!

وبلغت مقالة أبي جهل العباس بن عبد الله في اليوم الثالث فغضب العباس غضباً شديداً ، وثارت ثائرة بني عبد المطلب وخرج العباس يشتد يريد ان يدرك من أبي جهل ما فاته منه، وذهب الى المسجد نحو أبي جهل يتعرضه .

وكان ابو جهل رجـلا خفيفاً ، حديد الوجه ، حديد اللسان، حديد النظر، وإذا به يخرج مسرعاً نحو باب المسجد، وقد تغير لونه . فأسرع العباس في أثره ، ولكنه أدرك بعد قليل ان أبا جهل قد سمع ما لم يسمع .

فماذا سمع ؟!

سمع صوت ضمضم بن عمرو الغفاري ، وهو يصرخ ببطن الوادي، واقفاً على بعيره، قد جدع[1] بعيره ، وحوّل رحله، وشق قميصه ، وهو يصرخ بأعلى صوته :

– معشر قريش .. يا معشر قريش .

اللطيمة .. اللطيمة ..

---

(١) قطع انفه .

أموالكم مع ابي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه ..
لا أرى ان تدركوها .

الغوث .. الغوث .

اللطيمة .. اللطيمة [1] .

الغوث .. الغوث .

---

(١) العير التي تحمل الطيب والبز .

[٢]

جهر النبي ﷺ بدعوته، ووقف وحده .. كالجبل الأشم.. في وجه قريش .. في وجه العرب المشركين .. في وجه العالم كله . لقد امره ربه بتبليغ الدعوة .

قم فانذر .

بدعوة النـــاس الى الهدى ودين الحق .. الى الله رب السموات والأرض وما بينهما . الذي خلق كل شيء .. وخلق الانسان وأراد له الحياة الكريمة ، تحت ظل نظام كريم ، وعقيدة كريمة .. تبعث القوة والعزة والكرامة في نفوس معتنقيها .

ولكن قريشاً رفضت الدعوة .. وضربت سداً منيعاً حال بين الناس وبينها . ولجأت الى أسلوب التعذيب .. تعذيب الجماعة المؤمنة الطيبة التي تريد الخير والحياة الكريمة للانسان..

للعرب وغير العرب .. للناس أجمعين « وما ارسلناك إلا رحمة للعالمين » .

وتحملت الجماعة المؤمنة في ثلاث عشرة سنة ما لم تستطع أية جماعة من قبل ان تتحمل .. وثبتت ثباتاً عجيباً دونه ثبات الجبال الرواسي .. ثلاث عشرة سنة والمؤمنون يعانون ما يعانون من اضطهاد وتعذيب وصد واعراض وسخرية واستهزاء .. ثلاث عشرة سنة ولم يتزعزع رجل واحد .. امرأة واحدة .. صبي واحد .. من تلك العناصر القوية التي آمنت بالدعوة ، ورضيت ان تكون حجر الأساس في بناء الاسلام العظيم . فتحملت من أجـــله أقوى الضربات وأعنف الضغوط .. ولم تزدها المحن والنكبات، إلا تكاتفاً وتراصاً وإصراراً على مواصلة الدعوة الى الاسلام ، والثبات على العقيدة ، مهما كلف الأمر من تضحيات .. وهو تطبيق عملي رائع لقول النبي ﷺ :

« ... ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله او أهلك دونه » .

ولكن مكة قد أجدبت ، فلم تعد صالحة للدعوة ولو الى حين .. وجميع الطرق والمنافذ قد سدت أمام الراغبين في الوصول الى الاسلام ، دين الله الخالد .. وكأنه النبي ﷺ ، قد استمع الى صوت القرآن الكريم يخاطب نوحاً عليه السلام: « انه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن » . فجاءه الوحي

ملقياً في روعه ، ان هجرته الى المدينة وانه مستقر فيها . فأمر أصحابه بالهجرة اليها .. وبقي هو .. كأن ربان السفينة التي أوشكت على الغرق .. يرسل جنوده في قوارب النجاة الى شاطيء السلامة .. ولا يغادرها إلا بعد أن يطمئن إلى أن الجميع قد نجوا أو غادروا .

غادر النبي ﷺ مكة .. هاجر منها إلى المدينة بعد أن هاجر جميع أصحابه .. هاجر ليحمل النور الذي نزل عليه من السماء إلى بلد آخر ، بعد أن أعرضت عنه مكة ، ورفضته قريش ، وحاربه القوم ، واستكبروا استكباراً .

هاجر النبي ﷺ ليجد مكاناً مناسباً لغرسه ولكي تتاح لمكة فرصة ترجع فيها الى رشدها .. وتكسر من حدتها ، وتفكر بالعقل الهاديء المتزن ، لا بالعاطفة الثائرة المتهورة !!

وفي المدينة .. وجد المسلمون المهاجرون الأمن والأمان والطمأنينة ، ووجدوا اخواناً لهم شاركوهم في بيوتهم وأموالهم ، وعاشوا اسرة سعيدة متحابة . والتف المهاجرون والأنصار حول النبي الكريم ﷺ يتلقون أوامره وتعاليمه في منتهى الرضى والقبول ، وكانوا يتسابقون الى طاعته وتنفيذ أوامره .

في ذلك الجو الهاديء ، بعيداً عن مضايقات قريش ، قريباً من النبي ﷺ ، أخذت آيات القرآن تنزل على النبي ﷺ ،

تنظم المجتمع المسلم الصغير .. وأخذ النبي ﷺ يعد أصحابه ويربيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم . وكان الغرض من هذا الاعداد المتين ، هو أن يكونوا قدوة لغيرهم .. ليس لجيلهم فحسب .. ولا لعدد من الأجيال من بعدهم ، وإنما ليكونوا قدوة لجميع الأجيال الصاعدة من بعدهم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، هو ما لم يكن في دعوات الأنبياء السابقين صلوات الله وسلامه عليهم .

والأمة التي تريد أن تشق طريقها إلى الحياة .. وتكون لها شخصيتها المتميزة عن سائر الأمم ، لا بد لها من أمثلة عالية تتخذها قدوة .. ولا بد لها من نماذج ممتازة من تاريخها تبعث في أبنائها القوة والعزيمة والاستمرارية على الاندفاع في طريق الصعود .. مهما كان هذا الصعود شاقاً وعسيراً .

ولقد كان أصحاب النبي ﷺ ، خير أمثلة لأمة الاسلام ، الأمة القائدة الوسط .. وكانوا رضوان الله عليهم خير نماذج للدعاة الى الله ، في صبرهم وثباتهم وعزمهم وإصرارهم واستمرارهم على الدعوة .

كانت قيادة النبي ﷺ أرقى وأفضل القيادات الحكيمة المدركة . ومن سيرته ﷺ ، وسيرة هؤلاء الصحابة الكرام ، يستمد العرب المسلمون ، وغير العرب من المسلمين ، اندفاعهم في سبيل إعادة مجد الإسلام .

من هؤلاء فقط .. لا من أي مصدر آخر ، يستمدون العزم على المضي في الطريق .. مهتدين بهؤلاء الاعلام ، الذين قدموا لنا أروع الأمثلة في التاريخ .. كل التاريخ .. من يوم خلق الله الدنيا ، إلى هذا اليوم .. وإلى أن تقوم الساعة .

* * *

وبعد أن استقر النبي ﷺ مدة كافية ، بلغه ان عيراً لقريش في طريقها الى الشام بقصد التجارة ، بقيادة أبي سفيان .. فأراد النبي ﷺ ان يتعرض لها.. ولكنها أفلتت..

وأخذ النبي ﷺ يتتبع أنباء القافلة.. ويتقصى أخبارها، حتى بلغ نبأ عودتها ، ومعها ثلاثون أو أربعون رجلا لا يزيدون .. فندب النبي لها ﷺ المسلمين وقال :

– هذه عير قريش فيها أموالهم ، فأخرجوا اليها لعل الله ينفلكموها .

فخف المهاجرون والأنصار ، استجابة لأمر نبيهم ﷺ وتخلف بعض الأنصار ظناً منهم أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يلقى حرباً ، وان عدد الذين خفوا معه يكفي للاستيلاء على القافلة .

واستعملَ النبي ﷺ عبدالله بن ام مكتوم على الصلاة بالناس ، ثم ردّ أبا لبابة من الروحاء ، واستعملهُ على المدينةِ

مدة غيابه .

أما أبو سفيان .. فحين دنا بالقافلةِ من الحجاز ، أخذ يتحسس الأخبار ، ويسأل من لقيَ من الركبان ، تخوفاً .. وكان كلما اقترب من المدينة زاد خوفه و وعظم قلقة ، وأيقن ان السير صائرة الى المسلمين لا محالة .. وقد ظهر ذلك جلياً على جميع تصرفاته..حتى سرى هذا الشعور بالخوف الى كل من معه من الرجال .

وكان بين الحين والحين يرسل عدداً من الرجال ، ينظرون الطريق .. للتأكد من عدم وجود رجال أو كمين .. وبينما هو على تلك الحال من الخوف والقلق ، إذ مرّ به بعض الركبان.. فاستوقفهم،ثم بدأ يسألهم عن محمد وأصحاب محمد .. فأخبروه بأن محمداً استنفر أصحابه لك ولعيرك .

فطار صوابه ، وجن جنونه .. وتلفت حوله ، وأخـذ ينظر في وجوه القوم لعـل أحدهم يسعفه برأي أو مشورة ، وأخيراً دعا ضمضم بن عمرو الغفاري .. وأجزل له العطاء ، وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم الى أموالهم ، ويخبرهم ان محمداً قد عرض لها في أصحابه . فخرج ضمضم بن عمرو الغفاري سريعاً الى مكة .. فلما كان ببطن الوادي ، جدع بعيره ، وحول رحله ، وشق قميصه ، وصرخ بأعلى صوته :

– يا معشر قريش .. اللطيمة .. اللطيمة .. أموالكم مع مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه .. لا أرى ان تدركوها .

الغوث .. الغوث ..

وانتشر الخبر في مكة انتشار النــار في الهشيم ، وهب الرجال إلى سيوفهم ، ووجد ابو جهل ان الفرصة قد حانت لكي يكون القائد الأوحد ، فيسير بالجيوش الى قتال محمد .. وهكذا برز ابو جهل، وأخذ يثير المتردد والخائف ، ويدعوهم لقتال المسلمين .. وهكذا باتت مكة تتجهز لحرب النبي ﷺ.

أراد أبو جهل أن يقضي على الاسلام قضاءً تاماً ، فلا يدع من المسلمين رجلاً واحداً على قيد الحياة .. وأرادها أن تكون المعركة الفاصلة .. تنتهي بانتصار ابي جهل ومن وراءه ومن بعده .. فحشد لذلك جميع إمكانياته ، وأرسل أعوانــه يستنفرون القبائـــل العربية لنصرته .. وما هي إلا عشية وضحاها ، حتى جاءه عدد كبير ، رجال وسلاح ومؤونة .. وسار جيش المشركين يقوده ابو جهل .. الرجل الذي أراد أن يتصدر قريشاً ، وان تخضع له الجزيرة العربية ، فلا يدع فيها رجلاً ينازعه القوة والسلطان .

وسار جيش المشركين حتى وصـــل الى موضع يقال له

الجحفة .. فنزلوا فيه للراحة . . ووقف أبو جهل ينظر الى الجيش الذي ملأ الوادي .. وملأ عينيه من ذلك المنظر المهيب ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة ممزوجة برغبة قوية للانتقام .

أما أبو سفيان ، فقد رأى أن يسير بالقافلة جهة الساحل ، لتكون بعيداً عن متناول المسلمين . فلما اطمأن الى أنه قد أحرز عيره أرسل الى قريش يقول :

– إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجاها الله .. فارجعوا .

[٣]

كان جيش المشركين ينتشر انتشاراً عظيماً في السهل والجبل ، وقد تقاطرت القبائل العربية لنجدة قريش . ولبت نداءها .. كان ابو جهل يريدها ان تكون معركة فاصلة .. معركة تنتهي بإبادة المسلمين عن بكرة أبيهم ، كان يريدها معركة لا تقوم بعدها للاسلام قائمة .. ولن يترك بعدها رجلاً واحداً يقول : قال الله .. قال رسول الله ﷺ .

في ناحية من المعسكر .. أحاط عدد من الرجال بينهم الاخنس بن شريق الثقفي بجهيم بن الصلت بن مخرمة بن المطلب ابن عبد مناف .. وكان الأخنس بن شريق يقول :

– حدثنا بالذي رأيت يا جهيم .

ولكن جهيماً كان يهز رأسه ويقول :

– لا والله لا أتحدث .. لئلا يقول فيّ ابو الحكم ما قاله في عاتكة .

وبادره أحدهم بقوله :

– أتخشى أبا الحكم بن هشام يا جهيم ؟

وكانت طعنة في الصميم .. استشاط لها جهيم غضباً .. فتغير لونه .. وتبدل حاله ، وانحبست الكلمات في فمه .. وقال وهو يكاد يختنق من الغيظ :

– اسمعوا إذن .

وسكت هنيهة ، وهو يحاول أن يستعيد هدوءه ، ويسترد أنفاسه .. ثم قال :

– إني رأيت فيما يرى النائم .

ومضى يتحدث حديثاً ممزوجاً بشيء من الغيظ المكبوت .. والرغبة والرهبة من هول الرؤيا :

– إني رأيت فيما يرى النائم .

وإني لبين النائم واليقظان .

إذ نظرت الى رجل قد أقبل على فرس حتى وقف ومعه بعير له .. ثم قال :

قتل عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة .

وابو الحكم [1] بن هشام .

---

(١) ابو جهل .

- ابو الحكم ؟

- وابو الحكم بن هشام ؟!

- اي والله .. لقد قال : وابو الحكم بن هشام .

وامية بن خلف .

وفلان وفلان .

فعدد رجالاً من أشراف قريش .

ثم رأيته ضرب في لبَّة [١] بعيره .

ثم أرسله في العسكر .

فما بقي خباء من أخبية المعسكر إلا أصابه نضح [٢] من دمه .

وسكت جهيم ، وأخذ يتطلع في وجوه القوم .. فإذا سحابة من الوجوم تخيم على الجميع .. واذا الاخنس بن شريق يقول :

---

(١) لبة البعير : موضع النحر منه .
(٢) لطخ .

– والله انها لرؤيا.. والله انها من نفس النبع الذي خرجت منه رؤيا عاتكة !!

وما هي إلا إلا ساعة من الزمن ، حتى وصلت رؤيا جهيم الى آخر رجل في العسكر .. وتحلق القوم حول بعضهم ، وأخذ كل واحد منهم يفسر الرؤيا حسب علمه .. وانتبه ابو جهل الى الحركة غير العادية التي دبت في المعسكر .. فأرسل رجلاً يستطلع الخبر . وعاد الرجل يحدثه برؤيا جهيم . فلما سمع ابو جهل ذلك طار صوابه ، وخرج وهو يصرخ في قلب العسكر :

– وهذا أيضاً نبي آخر من بني المطلب .

ثم أضاف يعيد الثقة الى نفوس القوم :

– سيعلم غداً من المقتول ان نحن التقينا .

كان الاخنس بن شريق الثقفي قريباً من أبي جهل .. وقد سمع مقالته .. فقال الاخنس بصوت عميق ملؤه الصدق والصراحة :

– والله لتصدقن هذه الرؤيا .. كما صدقت رؤيا عاتكة من قبل .

وقبل أن يتم الاخنس كلامه ، أقبل رجل من بعيد يغذ

السير حتى اذا وصل الى ابي جهل وقف وقال :

– أنا رسول ابي سفيان اليكم .

فانصت القوم.. واقترب البعيد ليسمع بماذا جاء الرسول.. وكان الاخنس بن شريق أشد القوم تلهفاً لما سيقوله .. وتلفت ابو جهـــل .. وجال بنظره في وجوم القوم ، ثم التفت الى الرسول وقال :

– هات ما عندك .

قال :

– أرسلني ابو سفيان يقول :

انكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم . فقد نجاها الله .. فارجعوا .

وسرت موجـــة من الارتياح في نفوس القوم ، والتفت بعضهم يبتسم في وجوه البعض ، وأيقنوا انهـم عائدون .. ولكن أبا جهل تغير لونه .. والتهب رأسه بنـــار الغضب ، فشهر سيفه وصاح في العسكر :

– والله لا نرجع حتى نرد بدراً ، فنقيم ثلاثاً ، فننحر

الجزر ، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان [1] وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبـداً بعدها .. فامضوا .

فغرض ابي جهل لم يكن انقاذ التجارة فحسب ، وإلا فإنها نجت .. لقد كان هدفـــه الأول والأخير ، القضاء على الاسلام نفسه !! كان يريـــد ان لا يرتفع للاسلام صوت في جزيرة العرب .

وكان الاخنس بن شريق الثقفي، قد سمع مقالة أبي جهل ، وأدهشه غرور الرجل ، وعدم انصياعه لرأي أو مشورة .. وكان الاخنس حليفاً لبني زهرة ، وكان مطاعاً فيهم .. فلما وصل اليهم ، وقف وقال :

- يا بني زهرة .. قد نجى الله لكم أموالكم ، وخلص لكم صاحبكم مخرمة « وكان في القافلة مع ابي سفيان » .

وإنما نفرتم لتمنعوه وماله .

فاجعلوا بي جبنها .. وارجعوا .. فانه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير ضيعة .

---

(١) الجواري .

فلمـــا سمع بنو زهرة مقالته ، وثبوا الى رحالهم ، ورجعوا .

ثم أمر ابو جهل الجيش ، فساروا ، حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادي .

[٤]

علم النبي ﷺ ان القافلة قد أفلتت ، وان أبا سفيان قد استطاع أن ينجو بها..ولكن بلغه أيضاً ان قريشاً قد تجهزت لقتاله ، وانها سارت بجدها وحديدها تريد القضاء على الدين الجديد .

ونظر النبي ﷺ الى أصحابه ، الى هذه المجموعة الطيبة التي خرجت معه وهي لم تستعد لمواجهة جيش جرار ، فيه صناديد قريش وابطالها .. انهم خرجوا ليتعرضوا الى تجارة لا يزيد عدد من معها على الاربعين رجلاً .. أما الآن ، فهم مدعوون لمواجهة جيش كبير في سوابغ الحديــــد والبيض والعدة الكاملة والخيول المسومة .

هؤلاء الصحابة هم كل من تحمل الأرض من رجال الاسلام.. فإذا قضي عليهم ، فمعناه القضاء على الاسلام نفسه ، وانهـــا والله لمخاطرة واي مخاطرة ، ان تلتقي هذه المجموعة المؤمنة

التي لا تحمل معها إلا الايمان، بالجيش الكبير القادم من مكة !!

وعدم خوض المعركة التي استعد لهـــا الخصوم ، معناه الهزيمة !! الهزيمة المعنوية التي ستترك أثرها في نفوس المسلمين ، والتي ستؤدي الى استئساد الاعداء داخـــل المدينة من يهود ومنافقين .. وخارج المدينة من القبائل العربية !!

وكسب المعركة سوف يؤثر في ميزان القوى .. سوف يبعث الثقة والعزيمـــة في نفوس المسلمين ، وسوف يؤثر في موقف القبائل العربية منهم ، ويخذل اليهود والمنافقين .. وأخيرا سوف يشعر العرب بأن مشركي قريش لم تبق لهم تلك الصدارة التي كانوا يحتلونها من قبل !!

ووقف النبي ﷺ ، ينظر الى الفئة القليلة المباركة يريد أن يحدثها .. فانصت الجميع .

حدثهم النبي ﷺ .

اخبرهم بأن العير قد نجت .. وان قريشاً جاءت لمحاربتهم .. واستشارهم .

فنهض أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، فقال واحسن .

ثم نهض عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال واحسن .

ثم قام المقداد بن الاسود رضي الله عنه فقال :

– يا رسول الله .

امضي لما أراك الله .. فنحن معك .

والله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى :

« اذهب انت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون » .

ولكن اذهب انت وربك فقاتلا ، انا معكما مقاتلون . فوالذي بعثك بالحق ، لو سرت بنا الى برك الغماد [1] لجلدنا معك من دونه حتى تبلغه .

كان النبي ﷺ يريد الانصار .. ذلك انهم عدد الناس ، وانهم حين بايعوه بالعقبة ، قالوا : يا رسول الله : إنا براء من ذمامك حتى تصل الى ديارنا ، فإذا وصلت الينا ، فأنت في ذمتنا ، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا .

فكان رسول الله ﷺ ، يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه ، وان ليس عليهم ان يسير بهم الى عدو من خارج بلدتهم .

لذلك عاد رسول الله ﷺ يقول :

– اشيروا عليّ أيها الناس .

---

(١) – موضع في اليمن – والمقصود انك لو سرت بنا الى آخر الدنيا لسرنا معك .

وانتبه الانصار .. انتبهوا الى أن النبي ﷺ يعنيهم ، لقد قال المهاجرون كلمتهم .. وبقي الانصار لم يتكلم واحد منهم بعد . لذلك نهض سعد بن معاذ رضي الله عنه وقال :

ــ والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟

فنظر اليه النبي ﷺ بوجه المشرق المنير وقال :

ــ أجل .

قال سعد :

فقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا ان ما جئت به هو الحق ، واعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة .. فامض لما أردت ..

فنحن معك

فوالذي بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره ان تلقى بنا عدونا غداً .

انا لصبر في الحق .. صدق في اللقاء .

لعل الله يريك منا ما تقر به عينك .

فسر بنا على بركة الله .

كأن سعد بن معاذ رضي الله عنه ، قد وضع في هذه

الكلمات دستوراً للدعاة الى الله ، يتخذونه في العمل لدعوة الاسلام « ما تخلف منا رجل واحد » .

« لعل الله يريك منا ما تقر به عينك » .

كأنه رضي الله عنه ، وهو يهتف بهذه الكلمات ، يعبر عن شعور كل رجل من أصحاب النبي ﷺ . بل كأنه يعبر عن شعور كل فرد مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر الى يوم القيامة !.

ونظر النبي ﷺ الى أصحابه .. فإذا كلهم يحملون هـذا الشعور ، ويصدرون عن هذا الرأي .. فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد ، ونشطه ذلك ، وقال :

– سيروا وابشروا ، فإن الله تعالى قد وعدني احـد الطائفتين .. والله لكـأني الآن أنظر الى مصـارع القوم . ودفع اللواء الأبيض الى مصعب بن عمير .. وكان أمامه ﷺ رايتان سوداوين احداهما يقال لهـا العقاب مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، والاخرى مع بعض الانصار .

سار النبي ﷺ ، حتى نزل في موضع من بـدر .. وأمر أصحابه بالنزول .

ونظر الحباب بن المنذر بن الجموح رضي الله عنه الى المكان ،

فلم ير انــه صالح للمعركة .. لذلك تقدم رضي الله عنه الى النبي ﷺ يقول :

– يا رسول .

أرأيت هذا المنزل .

أمنزلاً انزلــه الله ليس لنا أن نتقدمه ، ولا نتأخر عنه ، ام هو الرأي والحرب والمكيدة ؟

فقال رسول الله ﷺ :

– بل هو الرأي والحرب والمكيدة .

عندئذ اشار الحباب رضي الله بما خطر له فقال :

– يا رسول الله . فان هذا ليس بمنزل .

فانهض بالناس ، حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله .. ثم نغوّر ما وراءة من القُلُب [1] ، ثم نبني عليـــه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم .

فنشرب ولا يشربون .

---

(١) القُلُب : جمع قليب ـ البئر .

فقال رسول‌الله ﷺ :

– لقد أشرت بالرأي .

هكذا قال رسول الله ﷺ .. لقد أشرت بالرأي . فان القيادة الواعية المدركة ، القيادة الحسنة ، هي التي تستفيد من خبرة الخبير ، كما تستفيد من شجاعة الشجاع ، وهي التي تجند كل ما بين يديها من قوى الآراء والقلوب والاجسام لمواجهة الخصوم ، انها معركة مصير .. ليست مصير فرد او جماعة أو فئة .. ولكنها معركة عقيدة تريد أن تشق طريقها الى قلوب الناس ومشاعرهم ، وتكون لها الكلمة العليا في كل قضية من قضايا الحياة .

وكانت السماء قد ازدحمت بالغيوم .. وما هي إلا لحظات حتى أرسل الله المطر . وكان الوادي دهساً [1] ، فأصاب الجهة التي كان فيها رسول الله ﷺ ، ما لبد لهم الأرض ، ولم يمنعهم عن السير .. وأصاب قريشاً ما لم يقدروا أن يرتحلوا معه .

عمل النبي ﷺ بمشورة الحباب رضي الله عنه ، فأمر المسلمين بأن يتقدموا الى أدنى ماء من القوم ، وأمر ببناء

---

(١) كل مكان لين لم يبلغ ان يكون رملاً .

حوض ملأوه ماءً ، ثم غوروا ما وراءه من القُلُب .

كانت هذه الجماعة المؤمنة ، جماعة فدائية .. وكانت تعلم يقيناً انه ليس على وجه الأرض جماعة تحمل الاسلام غيرها !! وانها اذا ما قضي عليها ، او هلكت ، ففي ذلك القضاء على الاسلام نفسه . وقد علم المسلمون أيضاً ، ان قريشاً تزيدهم عدةً وعدداً ، وانهم جاءوا وهم أشد ما يكونون إصراراً على القضاء عليهم !! ومع كل هذا ، فإن أمراً واحداً كان يقلقهم ، ويقضي مضاجعهم ، ويملك عليهم أقطار حياتهم .. لا ليس المال . ولا الأهل والولد .. انه الخوف على الدعوة.. الدعوة الى الله !! لذلك تقدم سعد بن معاذ رضي الله عنه ، يقترح على النبي ﷺ ، ان يبني له عريشاً يكون فيه ، فإن أعزهم الله ، وأظهرهم على عدوهم كان ذلك ما يحبون .. وان كانت الأخرى ، رجع النبي ﷺ الى من بقي من المسلمين في المدينة ، فاستأنف العمل معهم حتى يظهره الله على عدوه .

فاثنى عليه النبي ﷺ خيراً ، ودعا له بخير .. ثم بني لرسول الله ﷺ عريش فكان فيه .

لم يحدث في التاريخ القديم والحديث ، ان تعاون جنود

مع قائدهم هذا التعاون الرائع .. التعاون في الرأي والبذل والتضحية والمشورة .

وصدق الله العظيم :

« محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً » .

[٥]

لم يستطع العرب المشركون في اليوم الاول ، الانتقال من موضعهم في العـــدوة القصوى من الوادي ، بسبب الأمطار الغزيرة التي أصابت ناحيتهم .. أما المسلمون ، فان المطر الذي أصابهم ، لبَّد الأرض، ولم يمنعهم عن السير، ولذلك استطاعوا الانتقال الى أدنى ماء من بدر .. كلما أشار الحباب بن المنذر رضي الله عنه ، وكان يفصل بين المسلمين وبين العرب المشركين جبل .. فلمـــا كان اليوم التالي ، استعدت قريش للتقدم ، فأقبلت بخيلائها وفخرهـــا وهبطت الى الوادي.. وانتشرت انتشاراً واسعاً في الجهة المقابلة لجيش المسلمين !! فلما رآهـــا النبي ﷺ قال :

– اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها ، تحادك(١) وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذي وعـــدتني .. اللهم

---

(١) تعاديك .

احنهم [1] الغداة .

ولما اطمأن المشركون ، واتخذوا لهم موضعاً مواجهاً للمسلمين ، بعثوا عمير بن وهب الجمحي .. وقالوا :

– احزر [2] لنا أصحاب محمد .

فانطلق عمير بن وهب ، واستجال بفرسه حول جيش المسلمين ، ودقق النظر فيهم .. ثم رجع الى قريش وقال :

ثلثمائة رجل..يزيدون قليلاً او ينقصون . ثم أضاف قائلاً :

– ولكن امهلوني ، حتى أنظر .. أللقوم كمين او مدد ؟

وانطلق بفرسه مرة أخرى،فضرب في الوادي حتى أبعد، واستجال بفرسه في كل ناحية ، ثم رجع وقال :

– ما وجدت شيئاً .. ولكن ..

ولكن القوم أدركوا أنه لم يتم كلامه ، وان هناك بقية قد أخفاها في نفسه .. فبادره عتبة بن ربيعة وقال :

– ماذا وجدت ؟

فعاد الى تردده وقال :

---

(١) احنهم : اهلكهم .
(٢) الحزر : التقدير .

– ما وجدت شيئاً .. ولكن .

وصرخ به عتبة :

– ماذا وجدت يا عمير؟..تكلم يا رجل .. ماذا وجدت؟

وعاد عمير ، وقد تراخى قليلا أمام عتبة وقال :

– ما وجدت شيئاً ..ما وجدت مدداً .. ولكن .

ودار بعينه في وجوه القوم ، ثم تغلب على تردده وقال :

– ولكني رأيت .. يا معشر قريش .

رأيت البلايا تحمل المنايا .

نواضح يثرب تحمل الموت الناقع (١) .

قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم .

والله ما أرى ان يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلا منكم.. فاذا أصابوا منكم اعدادهم .. فما خير العيش بعد ذلك ؟! فروا رأيكم !.

فعلَتْ وجوه القوم كآبة مُرة .. وسرى بينهم همس .. ثم كسر أحدهم طوق الصمت بقوله :

---

(١) يثرب ـ المدينة المنورة .. الموت الناقع ـ البالغ في الافناء .

ـ لماذا نقاتل القوم ؟.. وقد نجى الله أموالنا ورجالنا ..

فبلغ ذلك أبا جهل .. الرجل الذي كان متعطشاً للدماء ، الرجل الذي لا يريد ان يغادر هذا المكان ، حتى يرى المسلمين مضرجين بدمائهم ، ثم يقيم في أرض المعركة ثلاثاً .. ينحر الجزر ، ويشرب الخمر ، وتعزف عليه القيان ، وتسمع به العرب .. فلا يزالون يهابونه أبداً بعدها .

واسرع ابو جهل يضرم النار قبل ان تنطفيء .. فدعا عامر بن الحضرمي وذكّره بدم أخيه عمرو بن الحضرمي .. وأثاره .. وحمّسه .. وأمره ان يقوم فيثير الناس .

فقام عامر بن الحضرمي . واكتشف .. وصرخ أمام جيش المشركين :

ـ واعمراه .. واعمراه [1] .

فحميت الحرب، وحقب [2] وأمر الناس ، واستوسقوا[3] ما هم عليه من الشر ، فأفسد على الناس الرأي الذي دعاهم

---

(١) قتله واقد بن عبدالله التميمي في سرية بقيادة عبدالله بن جحش ـ ابن هشام ج ٢ .
(٢) اشتد .
(٣) اجتمعوا .

اليه عقلاؤهم .

وعملية ابن الحضرمي ، بالغة في الاثارة .. ولا تستطيع مائة خطبة ان تؤدي عشر ما تؤديه هذه العملية في اثارة الناس وتحريضهم ودفعهم الى القتال !! وهي أخبث طريقة استغلها ابو جهل في اثارة عواطف الرجال وتحميسهم !!

عندها تهيأ جيش المشركين، ووقفوا في انتظار شارة الزحف.

فتح باب المبارزة من المشركين ، الاسود بن عبد الأسد المخزومي ؛ وكان رجلا شرساً ، سيء الخلق .. دفع جواده الى ميدان المعركة وقال :

— أعاهد الله لاشربن من حوضهم ، او لأهدمنه ، او لأموتن دونه .

وقبل ان يتوسط ميدان المعركة ، برز له حمزة بن عبد المطلب ، عم النبي ﷺ .. وأيقن الأسود ان هذه آخر لحظاته من الدنيا .. فقد كانت الضربات التي نزل بها سيف حمزة قوية وخاطفة ، أذهلته وأطارت صوابه .. وخشي اذا هو لم يبر بقسمه ، أن تكون قصته من النوادر التي يتندر بها العرب في مجالسهم . لذلك حصر همه كله في الوصول الى حوض فقط .. ولكن حمزة عاجله بضربة قوية اطن [١] قدمه بنصف

---

(١) اطن — اطار .

ساقه . فسقط الأسود على ظهره دون الحوض، ورجله تشخب دماً !. ولكنه لم ييأس من الوصول .. فقد أخذ يحبو .. ويحبو .. حتى وصل الى الحوض واقتحم فيه .. فأدركه حمزة ، فقتله .

لقد برّ الأسود بيمينه ، وبلغ الحوض .. ولكن هذا العهد مردود .. وكل عهد على معصية الله باطل !! وكل عهد على الوقوف في وجه الدعوة ، ومحاربة دعاة الاسلام .. في أي وقت .. في أي مكان..لا يزيد صاحبه إلا بعداً عن الله.

* * *

وكانت فاتحة خير استبشر لها المسلمون .

ولكن معسكر المشركين أصابه الاضطراب ، وسرت بينهم حركة وارتفت أصوات .. ثم عادت الصفوف الى الانتظام ، وبعد قليل برز ثلاثة فرسان : عتبة بن ربيعة ، وأخوه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة . فلما توسطوا ميدان المعركة ، دعوا الى المبارزة .

فوثب ثلاثة فتية من الانصار للخروج.. ولكن النبي ﷺ أرجعهم .. ثم التفت الى المهاجرين وقال :

– قم يا عبيدة بن الحارث .. قم يا حمزة .. وقم يا علي.

التقى حمزة بن عبد المطلب بشيبة بن ربيعة ، وفي لمح

البصر عاجله بضربة أردته قتيلا .. وأما علي فلم يمهل الوليد ان قتله .. والتقى سيف عبيدة بن الحارث رضي الله عنه، وكان أسن القوم، بسيف عتبة بن ربيعة..واستمر الضرب.. ثم اختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين،كلاهما أثبت صاحبه[1].

فلما رأى حمزة وعلي ذلك، كرا بسيفيهما على عتبة فذففا عليه، ثم احتملا عبيدة بن الحارث فحازاه الى المسلمين.

هنا تهيأ جو المعركة.

وبدأت جموع المشركين تزحف.

---

(١) جرحه جراحة لم يقم معها . ذففا عليه : اسرعا قتله .

[٦]

عـــدّل النبي ﷺ الصفوف ، وأمرهم أن لا يحملوا على المشركين حتى يأمرهم .. وقال :

– ان اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل .

ثم رجع الى العريش ، فدخله ، ومعه ابو بكر الصديق ، ليس معه فيه غيره .. فاستقبل رسول الله ﷺ القبلة ، ثم مد يديه فجعل يهتف بربه :

– اللهم انجزلي ما وعدتني ، اللهم آت ما وعدتني .

اللهم ان تهلك هذه العصابة من اهل الاسلام لا تعبد في الأرض .

فما زال يهتف بربه ، ماداً يديه ، مستقبلاً القبـــلة ، حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فأتاه ابو بكر ، فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه .. وقال :

– يا نبي الله ، كفاك مناشدتك ربك ،

فإنه سينجز لك ما وعدك [١] .

والله سبحانه وتعالى ، يحب أن يسمع صوت عبده .. يدعوه ويرغب اليه .. ولا سيما في مثل هذا الموطن . والعبد دائماً في حاجة الى مولاه، في حاجة الى تأييده وتثبيته وتسديد خطاه ، والأخذ بيده الى ما يحبه ويرضاه .

واستجاب الله دعاء نبيه ﷺ . « اذ تستغيثون ربكم ، فاستجاب لكم ، اني ممدكم بألف من الملائكة مردفين » . فاستبشر رسول الله ﷺ .. والتفت الى ابي بكر فقال :

– أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله . هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده ، على ثناياه النقع [٢] .

وكان جيش المشركين قد بدأ يتقدم نحو المسلمين .. اما المؤمنون فقد ثبتوا في مواضعهم امتثالاً لأمر النبي ﷺ ، وكان العدو يومئذ بين التسعمائة الى الألف مقاتل ، في سوابغ الحديد والبيض والعدة الكاملة ، والخيول المسومة .

واستمر الزحف من قبل المشركين . وامتثلت الجماعة المؤمنة ، أمر نبيها ﷺ ، فلم تتقدم خطوة واحدة . ولم

---

(١) هذه رواية مسلم .
(٢) النقع – الغبار .

يشعر المشركون إلا ونبال المسلمين تنهال عليهم من كل جانب، فأشاعت الاضطراب في صفوفهم .. وانطلقت النبال تشق صدر الفضاء ، محدثة فحيحاً كفحيح الأفعى ، مستقرة بعد ذلك في صدور المشركين ! .

واستطاع المؤمنون بتراصهم ، وامتثالهم أمر نبيهم ، أن يثبتوا في أماكنهم ، وان يبقوا المشركين بعيدين عنهم .. حتى خرج النبي ﷺ من العريش..وأخذ يحرض على القتال.. وقال :

– والذي نفس محمد بيده .

لا يقاتلهم اليوم رجل .. فيقتل .. صابراً محتسباً ، مقبلاً غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة .

وكان هذا النداء إيذاناً بالزحف .. وتحريضاً على قتال الاعداء ، فاندفع المؤمنون يردّدون شعار المعركة :

– احد .. احد .

واشتد لمعان السيوف ، وأخذ الشرر يتطاير ، وأحدثت السيوف بريقاً يخطف الأبصار .

والنبي ﷺ يقول :

والذي نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل .. إلا أدخله الله الجنة .

* * *

هذا هو الثمن الذي ثبتت من أجله الجماعة المؤمنة ثلاث عشرة سنة في مكة . وهذا هو الثمن الذي تقاتل من أجله هذه الصفوة المختارة التي هي خير من تحمل الأرض . وهذا هو الثمن الذي ثبت من أجله جميع الدعاة الى الله، منذ بدأت دعوة الاسلام في مكة الى هذا اليوم والى أن تقوم الساعة .

هذا الثمن الذي لا تستطيع أن تعوضه اية قوة على هذه الأرض .. هذا الثمن لا يستطيع ان يدفعه إلا رب السماوات والأرض .. خالق السماوات والأرض .. « فبذلك فليفرحوا هو خيرٌ مما يجمعون » .

* * *

وقد عبّر عن هذه الفرحة .. فرحة الاستشهاد في سبيل الله فدخول الجنة عمير بن الحمام فقال :

– بخ بخ [1] أفما بيني وبين ان أدخل الجنة الا أن يقتلني هؤلاء .

---

(١) كلمة تقال في موضع الاعجاب .

وكان في يده تمرات يأكلهن .. فقذف التمرات من يده .. وشهر سيفه ، وألقى بنفسه في قلب المعركة ، وأخذ يضرب بسيفه ، مقبلاً غير مدبر .. حتى نال مبتغاه واستشهد في سبيل الله .

* * *

جميع الرؤوس التي كانت تعذب المؤمنين في مكة ، حضرت في هذه المعركة .. والتقت القلة المؤمنة بالكثرة الكافرة .. التقى الآباء بالأبناء ، بالأقارب ، بالأصدقاء ، بالاخوان .. جمعتهم القرابة والعشيرة والحب والنسب ، وفرّقتهم العقيدة !!

التقى الابن بأبيه ، والأخ بأخيه ، والصديق بصديقه ، والقريب بقريبه .

التقوا في ساحة المعركة بالسيوف والرماح عندما عزّ اللقاء بغيرها !.

وثبتت الجماعة المؤمنة أمام ضربات الجيش الكبير ، كما تثبت الصخرة الصلدة في وجه البحر الهائج !! وصوت النبي ﷺ يثبتهم ويحرضهم :

– والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم رجل فيقتل ..

صابراً محتسباً .

مقبلاً غير مدبر .

إلا أدخله الله الجنة .

ولبى المؤمنون هذا النداء ، واشتاقت النفوس الى لقاء الله ، وتفننت في التقرب اليه وكسب رضاه .. فعند احتدام المعركة ، وتساقط الرجال ، وصليل السيوف ، وتكسر الرماح ، تقدم عوف بن الحارث رضي الله عنه ، يسأل النبي ﷺ :

– يا رسول الله .. ما يضحك الرب من عبده ؟

فنظر اليه النبي ﷺ وقال :

– غمسه يده في العدو حاسراً .

فما كان من عوف بن الحارث إلا أن نزع الدرع التي كانت عليه فقذفها .. ثم ألقى بنفسه في لهيب المعركة .. فقاتل حتى قتل .

وليس الجود بالنفس أقصى غاية الجود ، فقد يجود الرجل بنفسه في موضع البذل والتضحية والفداء ، ولكنه يتردد كثيراً ، وقد يمتنع اذا تطلب الأمر ان يجود بأبيه او ابنه او اخيه .. وقد يحجم أيضاً اذا مس صديقه أو قريبه .

ولكن أصحاب النبي ﷺ ، وقـد امتلأت قلوبهم بنور الايمان ، وتحولت كل ذرة من ذرات جسومهم الى الاسلام ، انصبغت بصبغته .. هذه القلوب الطاهرة الشريفة ، لم تسمح لكائن غريب ان يحتل مقعداً فيها !! حتى ولو كان هذا هو الاب والابن او الأخ .. او أقرب مخـلوق اليهـا اذا لم يكن مؤمناً بالله ورسوله !

فأما ابو بكر الصديق رضي الله عنه ، فقد تصدى لابنه عبد الرحمن – وهو يومئذ مع المشركين – فهجم عليه يريـد قتله ، ولكن عبد الرحمن أفلت من أبيه .

والتقى أبو عبيدة عامر بن الجراح بأبيه عبدالله بن الجراح، ودارت بينهما معركة رهيبة .. انتهت بقتل عبدالله بن الجراح .

أما عمر بن الخطاب ، فقد هجم على خاله العاص بن هشام، فأرداه قتيلاً .

لقد علم تبارك وتعالى ، وهو العليم الخبير ، ان ليس في قلوب هؤلاء المؤمنين هوادة للمشركين .. ولو كانوا آباءهم او ابناءهم او اخوانهم او ...

ونزل القرآن الكريم، يؤيد ويبارك ويبشر هؤلاء المؤمنين الصادقين الصالحين :

« لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادّ الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو ابنـــاءهم او اخوانهم او عشيرتهم ، اولئك كتب في قلوبهم الايمـان ، وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها .. رضي الله عنهم ورضوا عنه .

اولئك حزب الله .

« ألا ان حزب الله هم المفلحون » .

وكان رسول الله ﷺ ، يتردد بين العريش وأرض المعركة، ليكون قريباً من جنده ، يحثهم ويرغبهم ويشد ازرهم .

وعندما اشتدت المعركة ، وأخذت الجياد تكبو .. والإبل ترفع رأسها ، والفرسان يتساقطون ، والنبال تستقر في صدور الرجال وظهورهم ، والغبار قد حوّل بياض النهار الى ظلام.. وشعار المسلمين يرتفع : أحدٌ.. أحدٌ .. في هذا الجو الرهيب كسر سيف عكاشة بن محصن الأسدي ، وكان عكاشة قد أبلى بلاءً حسناً ، وقاتل المشركين بسيفه حتى انكسر ولم يعـد قادراً على مواصلة الضرب . فهرع الى النبي ﷺ ، فلمـا رآه النبي ﷺ ، أعطاه جذلاً [١] من حطب وقال :

---

(١) الجذل : أصل الشجرة .

– قاتل بهذا يا عكاشة .

فأخذه من رسول الله ﷺ ، بكل حماس واخلاص ، وهزه ، فعاد في يده سيفاً، طويل القامة ، شديد المتن، أبيض الحديدة .. أخذه عكاشة ثم غاص في قلب المعركة .

واشتد ضغط المشركين على المسلمين ، واستعان المشركون بكل ما لديهم من سلاح وخيل وإبل ، وبكل الرجال .. ولم يتزحزح المؤمنون ، بل وقفوا بكل شجاعة يتحدون بإيمانهم باطل المشركين ، ولم تكن لهم إلا غاية واحدة .. رفع كلمة الاسلام .

واطلع الله العزيز الحكيم ، على حال القلة المؤمنة ، فأيدهم بالملائكة « اذ يوحي ربك الى الملائكة اني معكم ، فثبتوا الذين آمنوا .. سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب، فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان » .

وكانت سيما الملائكة يوم بدر ، عمائم بيضاء قد أرسلوها على ظهورهم .

كان ابو داود المازني ، يقاتل رجلا من المشركين ، ولما أيقن المشرك انه لا يستطيع الثبات أمام ابي داود ، أطلق ساقيه للريح ، فتبعه ابو داود ، حتى أدركه ، ورفع سيفه

ليهوى به على رأسه .. واذا برأسه يطير قبل ان يصل اليه سيف ابي داود .. فعلم ان الملائكة قتلته !!

ثم ان رسول الله ﷺ، أخذ حفنة من الحصباء ، فاستقبل بها قريشاً ، ثم قال :

– شاهت الوجوه .

ثم نفحهم بها .

فما بقي من المشركين أحد إلا أصابه الله في عينيه ومنخريه وفمه من تلك الحفنة من التراب .. فالنبي ﷺ رمى ، والله سبحانه وتعالى تكفل بإيصال التراب الى عيون المشركين وأفواههم .

وأمر النبي ﷺ أصحابه فقال لهم :

– شدوا .

فاندفعوا بكل قوتهم يضربون في العدو الذي أعمته الحصباء وسدت في وجهه المسالك .. فكانت الهزيمة النكراء .. فأعز الله رسوله ، وأظهر وحيه وتنزيله ، وأخزى الشيطان وقبيله .

« فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم .

وما رميت إذ رميت ، ولكن الله رمى ،

وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً .

ان الله سميع عليم .

ذلكم وان الله موهن كيد الكافرين » .

واندفع المشركون في هزيمتهم ، والمؤمنون يطاردونهم ويأسرون منهم ، ورسول الله ﷺ في العريش ، وسعد بن معـــاذ قائم على باب العريش ، متوشحاً السيف في نفر من الانصار ، يحرسون رسول الله ﷺ ، يخافون كرة العدو .

وتجهم وجه سعد وهو ينظر الى المسلمين يأسرون الأعداء ورأى رسول الله ﷺ في وجه سعد الكراهية لمـا يصنع المسلمون ، فقال :

– والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم .

قال سعد بن معاذ :

– أجل ، والله يا رسول الله ، كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك ، فكان الاثخان في القتل بأهـل الشرك أحب إليّ من استبقاء الرجال .

* * *

هكذا انتهت المعركة بهزيمة المشركين .

وسقطت الرؤوس الكبيرة التي كانت تحارب الاسلام ، وتناصبه العداء ، ولم يغن عنهم جمعهم شيئاً ، فقد سبق عليهم الحكم مقدماً وكان هذا يوم التنفيذ !!

« فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم » .

وسقطت جميع الرؤوس التي حاربت الاسلام من بعد .. وضيقت عليه ، وحاولت أن تعزله في المساجد الخربة فلا يرى نور الشمس !! لأنها كانت تحارب الله..والله قوي عزيز.
« ذلكم وان الله موهن كيد الكافرين » .

[٧]

قاد ابو جهل جيش المشركين لمحاربة المسلمين ، وكان يريدها حرباً ماحقة ، لا تذر على الأرض من المسلمين فرداً ! وقد أرادها موقعة تتحدث بها العرب على مدى الأجيال ..

وقد تحدثت بها العرب .. بل تحدث بها العالم كله ، ولكن على غير ما يشتهي ابو جهل !!

لقد تحدث العرب بهزيمة ابي جهل ، وتحدث التاريخ ، وتحدثت الأجيال .. وأسهب الجميع في ذكر تفاصيل المعركة ، وخلدها القرآن الكريم بكلمات معدودات ، وبحروف من نور ، وأوجزها بقوله : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة » .

إن الملوك والرؤساء والقادة .. ليسهبون في ذكر المعارك الصغيرة التي تنتهي بفوزهم ، ويبالغون في أهميتها وذكر ضروب الشجاعة والبطولة التي قاموا بها ، ويهولون كل حدث

صغير ، ويسخرون في سبيل تضخيمه ولفت الأنظـــار إليه الأقلام والصحف والاذاعات .. كل ذلك لكي يلقوا في روع الشعب اهمية القائد الذي خــاض المعركة ، فيلتف حوله ، ويخضع له وينقاد له .. ولعبقريته .

ولكن القرآن له اسلوب آخر .. اسلوب لا يعتمد على اثارة العواطف لمصلحة فرد أو جماعة .. إن معركة القرآن مع خصومه لا تقوم على الادعاءات – حاشاالله – وإنما تقوم على الحقائق .. والحقيقة يكفيها أن تخلَّدَ ببضع كلمــات ، فتضم كل كلمة تحتها معاني الدنيا بكاملها ..

« ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة » .

وهذا دليل آخر على أن القرآن من عند الله ..!

انتهت المعركة بهزيمة العرب المشركين .. ومضى المسلمون يجمعون الاسلاب ، ويسوقون الأسرى .. وكان ابو عزيز زرارة بن عمير – اخو مصعب بن عمير ، من نصيب ابي اليسر ، رجل من الأنصار .. فمر به أخوه مصعب بن عمير ، فلما رآه ابو عزيز استبشر ، وظن أن أخاه سيتدخل في اطلاق سراحه .. غير أن مصعباً التفت الى أبي اليسر وقال له :

– شد يديك به ، فان امه ذات متاع لعلها تفديه منك .

وتعجب ابو عزيز من مقالة أخيه ، ونظر إليه متوسلاً وعاتباً وقال :

– يا أخي .. هذه وصاتك بي .

فأجابه مصعب :

– إنه أخي دونك ..

إنها اخوة الاسلام التي قطعت اخوة النسب ، إنها الأخوة الدائمة الباقية التي أكدها الله تبارك وتعالى بقوله :

« إنما المؤمنون اخوة » . فهذه هي رابطة الاسلام التي دونها رابطة الدم والعشيرة والنسب .. إنها الرابطة التي أرادها الله ورضي عنها ، وقررها في كتابه الكريم « فاصبحتم بنعمته اخوانا » .

* * *

من الرؤوس الكبيرة التي كانت تعذب المسلمين في مكة ، امية بن خلف « كان هو الذي يعذب بلالاً على ترك الاسلام ، فيخرجه الى رمضاء مكة إذا حميت .. فيضجعه على ظهره ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول :

ـ لا تزال هكذا أو تفارق دين محمد ..

فيقول بلال :

ـ أحد .. أحد ..

هذا الرأس الكبير الذي حارب الاسلام ، وعذب المؤمنين وقف هذا اليوم مخذولاً مهزومـاً ، وقد أخذ بيد ابنه علي ابن امية .. فلما رأى عبد الرحمن بن عوف ، وكان له صديقـاً بمكة ، ناداه .. وقال :

ـ هل لك فيّ ، فأنا خير لك من هذه الادراع التي معك. وكان مع عبد الرحمن ادراع ، قد استلبها ، فهو يحملها . فلما سمع قول امية بن خلف ، طرح الادراع ، وأخذ بيـده ويد ابنه .. فلما سار بهما .. سأله امية :

ـ من الرجل منكم المعلم بريشة نعامة في صدره ؟

قال :

ـ ذاك حمزة بن عبد المطلب .

فقال امية :

ـ ذلك الذي فعل بنا الأفاعيل .

وبينما هو يقودهمـا ، إذ رآه بلال .. فأقبل عليـه وهو يصيح :

ـ رأس الكفر امية بن خلف ، لا نجوت ان نجا .

وصرح عبد الرحمن :

ـ أي بلال .. أبأسيري ؟

وصاح بلال :

ـ لا نجوت ان نجا ..

تذكر بلال السنين الطويلة الـتي كان يعذبه فيهـا امية ، والصخرة العظيمة التي كان يضعها على صدره ، واغراء الصبية به .. تذكر كل ذلك فعاد يصرخ :

ـ يا أنصار الله ، رأس الكفر امية بن خلف .. لا نجوتُ ان نجا ..

فأسرع الأنصار ، فأحاطوا بهم حتى جعلوهم في مثـــل المسكة [1] وعبدالرحمن بن عوف يذب عنه . فلما رأى أنه لا يستطيع الدفاع عنها قال :

---

(١) احدقوا بهم وجعلوهم في حلقة كالسوار .

ـ انج بنفسك، ولا نجاء بك، فوالله ما أغني عنك شيئاً..

فهبروهما بأسيافهم حتى فرغوا منهما .

* * *

فلما فرغ رسول الله ﷺ من عدوه ، أمر بأبي جهل أن يلتمس في القتلى .. وقال لهم النبي ﷺ :

ـ انظروا ، ان خفي عليكم في القتلى ، الى أثر جرح في ركبته ، فإني ازدحمت يوماً أنا وهو على مأدبة لعبد الله ابن جدعان ، ونحن غلامان ، وكنت اشف منه بيسير ، فدفعته فوقع على ركبتيه فجشمت [1] إحداهما جمشاً لم يزل أثره به .

فوجده عبد الله بن مسعود بآخر رمق ، فعرفه ، وكان ابو جهل قد ضبث [2] به مرة بمكة ، فآذاه ولكزه ، فلما رآه عبد الله بن مسعود ، أخذ بلحيته وقال :

ـ هل أخزاك الله يا عدو الله ؟

قال وهو ينتزع الكلمات من نفسه انتزاعاً :

ـ وبماذا أخذاني ؟

---

(١) خدش .

(٢) قبض عليه ولزمه .

ثم أضاف يقول :

ـ أخبرني لمن الدائرة اليوم ؟

فأجابه عبد الله بن مسعود :

ـ لله ولرسوله .

قال عبد الله بن مسعود :

ـ ثم احتززت رأسه ، ثم جئت به رسول الله ﷺ فقلت :

ـ يا رسول الله ، هذا رأس عدو الله ابو جهل .

فقال رسول الله ﷺ :

ـ آ الله الذي لا إله غـــيره .. « وكانت يمين رسول الله ﷺ » .

قلت :

ـ نعم والله الذي لا إله غيره .

ثم ألقيت رأسه بين يدي رسول الله ﷺ .

ثم أمر رسول الله ﷺ بالقتـــلى من المشركين أن يطرحوا في القليب .

---

(١) شفير البئر .

وكان ﷺ إذا ظهر على قوم ، أقام بالعرصة ثلاث ليال ، فلما كان اليوم الثالث ، أمر براحلته فشد عليها ، رحلها ، ثم مشى وتبعه أصحابه حتى قـــام على شفة الركى [1] ، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم :

ـ يا فلان بن فلان ويا فلان بن فـلان ، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله .. فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟

فقال عمر :

ـ يا رسول الله ، ما تكلم من أجساد لا أرواح لها ؟

قال ﷺ :

ـ والذي نفس محمد بيده ، ما أنتم باسمع لما اقول منهم [1].

هذه كانت نهاية هؤلاء الذين حاربوا الإسلام وصدوا عنه ، هذه كانت نهايتهم .. أن سحبت جثثهم على مرأى من المؤمنين الذين لاقوا من أصحاب هذه الجثث الأمرين . آذوهم وعذبوهم وحاولوا بكل وسيلة صدهم عن دينهم !! هذه كانت نهـــاية هؤلاء الطغاة .

---

(٢) هذه رواية البخاري .

ان سحبت جثثهم كما تسحب جثث الكلاب ، والقيت في القليب . هذه نهاية كل رجل حارب الإسلام، ودعاة الإسلام. ولا يزال كلام القرآن ، مدوياً .. منذراً ومتوعداً بعذاب أشد ومصير أخزى ، لكل من يتصدى لدعوة الإسلام : «بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر » .

« ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدّكر » .

هذه كانت نهاية أبي جهل ، ونهاية فرعون من قبل :

« فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية »

ونهاية كل ابي جهل يقف في وجه شعبه ويقول :

« ما اريكم إلا ما أرى » . ولسان حاله يقول أيضاً :
« أنا ربكم الأعلى » .

سقطت الرؤوس التي كانت تحمل لواء محاربة الإسلام .. سقط أبو جهل ، وغير أبي جهل .. وصدق الله العظيم :
« كتب الله لأغلبن » .

فليضرب أعداء الإسلام .. كل الأعداء .. رؤوسهم في صخرة الإسلام ، فإن رؤوسهم هي التي ستتحطم .. أما الإسلام .. فهو الجبل الأشم الذي يفديه أبناؤه بكل ما يملكون .. من قوة المال والأجسام والأرواح .

كان من نتيجة هـذا النصر ، ان ايقن المسلمون انهـم لم يعودوا قـوة ضعيفة في الأرض ، وان في استطاعتهم ، إذا صدقوا النية ، وأخلصوا العمل ، أن يقفوا في وجه أكبر قوة في الأرض فيردوها على ادبارها .

من هذه المعركة ، استمد المسلمون الى هذا اليوم الأمل في النصر .. مهما أدلهمت الخطوب ، وأظلم وجه الليل ، وطـال الوقت واستيأس الناس .. فإن نصر الله آت لا محالة .

الحق لا بد أن ينتصر .

ورجال الباطل في هزيمة ولا بد .

« سيهزم الجمع ويولون الدبر » .